بسملة

ثقافةُ النّصِّ المعصوم

■ الشيخ حسين كوراني

في مستهلِّ الأشهُر الثّلاثة رجب وشعبان وشهر رمضان، يكتسبُ الحديثُ عن النّصّ المعصوم خصوصيّةً عمليّةً بارزة، مردّها كونُ هذه الأشهر الدّورةَ العلميّة والعمليّة الأبرز على مدار السّنة وبالتّالي العمر كلّه. إنّها ليلةُ قدر التّربية الثّقافيّة والتّأمّل المنهجيّ المتجدّدةُ كلّ عام. ليست ليلةُ القدر الّتي هي خيرٌ من ألف شهر إلّا لبّ هذه الدّورة المركزيّة.

اللّافت في روايات هذه الأشهُر -الدّورة- هو التّوكيدُ على «**اليقين الثّقافيّ**» بالرّسالة والرّسول. بالحقيقة الّتي يحملُها النّصُّ القرآنيّ والثّابتُ من حديث المعصوم.

يستثيرُ ما تقدّم خزينَ الفطرة الإنسانيّة القائمَة على اليقين بالحقيقة، الّذي يقيسُ الاحتمال والشّكّ والظّنّ بمعيار قُربه من اليقين أو بُعده عنه.

تتماهى الإنسانيّةُ مع الحقيقة. العقل يكتشفُ الحقيقةَ ويَستجليها، والقلبُ حَرَمُها. الحقيقةُ هي اليقين. يتماهيان. ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يونس:٣٥-٣٦.

***

حين أطلقَ المعصومُ معادلة: تلبيس الحقّ بالباطل = رحلة البشريّة المعذّبة، كان -المعصوم- يؤصّلُ معادلة: استخراج الحقّ من خاصرة الباطل = نَقْبَ الباطل أو بَقْره.

قال عليٌّ عليه السلام: «**إنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ - يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ - وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ - فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ - لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ - وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ - انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ - وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ - فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ - وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى**».

وقال عليه السلام: «**وأيْمُ اللهِ، لأبْقُرَنَّ الباطلَ حتّى أُخْرِجَ الحقّ مِنْ خاصرته**».

النّصُّ المعصومُ سفينةُ نجاةِ البشريّة في رحلة البحث عن الحقيقة. النّصُّ المعصومُ منجمُ الحَقيقة واليَقين.

***

﴿.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ البقرة:٣٨-٣٩.

لم يَترُك الحقُّ عذراً لمعتذر: ﴿.. قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ١١٨.

ولا تَرَكَ ذريعةً يتوسّلُ بها مَن رَضِيَ لنفسه لوثةَ الشّكّ وتخريصَ الظّنّ وأخلدَ إليهما تباهياً وتمويهاً: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. الروم: ٦٠.

عندما تَجِد بَرْدَ اليقين في مستقرِّ الفؤاد، فأنت من: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لقمان: ٤.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ النمل:٣.

قادةُ رحلة اليقين هم الطّلائعُ المُوقنة، ساداتُ الموقنين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة:٢٤.

ينقسمُ البشرُ إلى قسمَين: المُوقنين والمُتظاهرين باليقين وإمّا يبلغوه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ البقرة:٣-٨.

***

بَدءُ مدارج اليقين بعصمةِ النّصّ القرآنيّ أن لا يُصادر المفسِّرُ عصمةَ القرآن فَيَدّعيها، ويُجلِسُ القرآن كالتّلميذ بين يدَيه، يُسبغُ عليه من حداثته، و«يبرّئه» ممّا لا ينسجمُ مع «روح العصر»!

وأُولى مدارج اليقين بعصمةِ الثّابت عن المعصوم، اليقينُ بالمعصوم ومرجعيّته المركزيّة في التّلقّي من القرآن، وفقهِ القلب والحياتَين الممرِّ والمستقرّ.

لا سبيلَ إلى ذلك للباحثين عن الحقيقة خارجَ النّصِّ المعصوم -وما أُبرِّئُ نفسي-، تحتَ براقعِ الحداثة الوَهم، والعقلانيّة الرّاطنة، والمعاصَرة المُلتَبسة بين الآلة والأزرار الإلكترونيّة، وبين «الآفاق والأنفُس». الّذين لم يروا من الإنسان إلّا جسدَه، ولم يؤمنوا بالعقل لأنّهم لم يَروه! فلم يبحثوا عن الحقيقة لأنّهم لم يُعملوا عقولَهم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الروم:٢٨-٢٩.

أن يسمحَ المفسّرُ لنفسه أن يكونَ «أستاذ الله»!! ﴿.. أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ ..﴾؟! الحُجُرات:١٦، أصلُ ثقافة «الإنسان الخالق» المادّيّة السّائدة وفَصْلُها. مَنْ ضرَبته لوثةُ «التّغريب» فقد تتلمذَ على «أستاذ الله»!!! فكيفَ سيقبلُ قولَ رسولِ الله أو وليِّه سبحانَه وتعالى.

من أبرز خصائص المَشهد الثّقافيّ الإسلامويّ في مفتَتح الألفيّة الثالثة، البحثُ عن القدوة الفكريّة والثّقافيّة والعلميّة والعمليّة خارجَ النّصِّ المعصوم.

- أخطرُ تَمظهُرات هذا الطّيف من المشهد هو اليقينُ بأنّ ذلك لا يناقضُ مرجعيّةَ النّصِّ المعصوم، الّذي حبسَه هؤلاء في الماضي حين أطلقوا عليه اسمَ «التّراث»!
- أخطرُ منه التّصريحُ بتطويع هذا «التّراث!» لثقافة الغرائز وصرير الآلة، وجَشَع المردود الرّبحيّ.
- وأخطر منه مَلأُ النّصّ الدّينيّ بحَشرَجَات الآلة والحيوان والجَشَع، وتقديم ذلك في عمليّة التّثقيف الدّينيّ كما يجري الآن على نطاقٍ واسع باسم «الإرشاد الأُسَريّ»!! -ولا أُسرةَ في الغرب- وكذلك باسم «علم النّفس» و«المناهج التّربويّة» وغيرها..

ثقافةُ النّصِّ المعصوم ثقافةُ اليقين. اليقينُ بعصمةِ هذا النّصِّ شرطٌ حصريٌّ للوصول إلى ما يحملُه من حقائق ويَقينيّات.